الفصل الثالث

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

كيف تمت البيعة لعثمان رضي الله عنه؟

عندما تعرض عمر رضي الله عنه لعملية الاغتيال الأثيمة، ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين، ورفض ما أشاره عليه بعض الصحابة من أمر الوصاية لابنه عبد الله، ثم حصر أمر الشورى في ستة من الصحابة، توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

واجتمع عبد الرحمن بن عوف بعلي وعثمان وسعد والزبير وطلحة وغيرهم من كبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، للتشاور فيمن يكون هذا الأمر بعد مقتل عمر، ثم اقترح عليهم اقتراحاً يجنبهم التنافس، فقال لهم: أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها، على أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال: أنا أخلع منها نفسي، فرضي القوم بذلك وعلي ساكت، فقال له عبد الرحمن: فما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أعطني موثقاً: لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمه، ولا تألو الأمة، فقال عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله، ألّا أخص ذا رحم ولا آلو المسلمين.

فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، ومن ثم أخذ عبد الرحمن يستشير الصحابة وأمراء الأجناد، وأشراف الناس فيمن يصلح لهذا الأمر من هؤلاء، فكان بعضهم يشير بعلي، وبعضهم الآخر بعثمان، وكذلك استشار أصحابه المرشحين، فقال لعلي: لو لم يكن لك هذا الأمر، فمن ترضى؟ فقال: عثمان.

وكذلك فعل مع الزبير، وسعد، فقالا: عثمان، ثم سأل عثمان فأشار بعلي[1] من هنا نجد أن استحقاق الخلافة انحصر في عثمان وعلي، ذلك أنهما كانا محط أنظار الصحابة، وأشراف المسلمين.

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: مختصر تاريخ دمشق، ١٦/ ١٥٣، وتاريخ الخلفاء، ص ١٢٩ كما في الصواعق المحرقة، ١/ ٣٠٩، انظر أيضاً تاريخ الطبري ٢/ ٥٨٢.

ولما انتهى الأجل الذي ضربه عمر، قام عبد الرحمن بن عوف وقال: إني نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً فقال له: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده. فقال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قال لعلي، فقال: نعم(١). فبايعه عبد الرحمن، وبذلك نال عثمان الخلافة.

إلا أن ثمة مهاترات اتصلت بهذه البيعة، حيث زعم بعضهم أنها غير شرعية، وساق الطبري ـ في هذا الصدد ـ رواية عجيبة، تفتح أبواب الشر، وتشعل نار الفتنة، وتظهر علياً ناكثاً لعهده، غير مبالٍ بقسمه الذي أقسمه أمام جماهير الصحابة، حيث قال ـ بزعم الرواية ـ ما نصه: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، والله ما وليت عثمان إلا ليردّ الأمر إليك، والله كل يوم في شأن(٢).

فكيف يحلف علي يميناً بالله على أمر مضمر ليس ثمة ما يشير إلى أنه دار في خلد عبد الرحمن؟ ولا يعقل أن يخطر بباله، وقد خلع نفسه منها طائعاً مختاراً، ثم متى يرد الأمر إلى عبد الرحمن؟ والأعمار بيد الله تعالى(٣).

وحسبك أن تعرف مصدر هذه الرواية الخبيثة، لتدرك كذبها حيث جاءت من طريق أبي مخنف، راوي الأباطيل(٤).

---

(١) وقد اعتذر عبد الرحمن بن عوف حينما سأله أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي قائلاً: كيف بايعتم عثمان، وتركتم علياً؟ فقال: ما ذنبي، قد بدأت بعلي، فقلت: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر، فقال: فيما استطعت، ثم عرضت ذلك على عثمان، فقال: نعم. أخرجه أحمد في المسند، ١/ ٧٥، وأورده ابن عساكر في تاريخه كما في المختصر ١٦/١٥٨، وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص١٢٩ كما في الصواعق المحرقة ١/ ٣٠٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٢/٥٨٣، وابن الأثير: تاريخ ٣/ ٣٧.

(٣) إبراهيم شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ص ١٤٠ . ١٤٢، بتصرف.

(٤) انظر تاريخ الطبري، ٢/ ٥٨٠، قصة الشورى.

وقد ثبت فيما صح من الروايات أن علياً لم يتأخر عن بيعة عثمان، وغزا معه، وأقام الحدود بين يديه، فثبت بذلك جميعه، وبما ضربنا عنه صفحاً من روايات صحة بيعة عثمان.

أبرز الأحداث التي حصلت في خلافته

ولاية سعد بن أبي وقاص الكوفة وعزله سنة ٢٥هـ:

كان عمر بن الخطاب عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة، وولى مكانه المغيرة بن شعبة، بسبب اتهام بعض أهل الكوفة له بأنه لا يحسن الصلاة، ولا يعدل، إلى غير ذلك من اتهامات لا أساس لها من الصحة، فأوصى الخليفة من بعده أن يستعمل سعداً، وقال: إني لم أعزله عن سوء ولا خيانة، فكان أول عامل بعث به عثمان على الكوفة سعد بن أبي وقاص.

ثم لم يلبث أن عزله، لخلاف وقع بينه وبين عبد الله بن مسعود، وكان معه على الخراج، سببه أن سعداً اقترض من عبد الله مالاً، فلما تقاضاه لم يتيسّر له قضاؤه، فارتفع بينهما الكلام، فتعصب لهذا قوم ولذاك آخرون، فكان ذلك أول نزاع حصل بين أهل الكوفة، وبلغ الخبر أمير المؤمنين عثمان، فغضب عليهما، فعزل سعداً، وأقرَّ عبد الله، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط مكان سعد.

قام الوليد بن عقبة بعزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان، فنقض أهلها، فغزاهم الوليد، فأغار على أهل موقان، وألبير، والطيلسان، ففتح وغنم وسبى، فطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة، وهو ثمان مئة ألف درهم.

وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً، فشتت شملهم، ورجع إلى الوليد بغنائمهم، فعاد الوليد وقد ظفر وغنم، وجعل طريقه على الموصل، فلما أتى الحديثة[1] أتاه كتاب أمير المؤمنين عثمان يأمره فيه أن يمد معاوية بن أبي سفيان في الشام برجل من ذوي البأس والنجدة لمواجهة الروم

(١) الحَدِيثة: وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى.

الذين أجلبوا على المسلمين بجموع كثيرة، فندب الناس مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، فشنوا عليهم الغارات، وألحقوا بهم الهزيمة، وغنموا غنائم عظيمة، وفتحوا حصوناً كثيرة.

وأقام الوليد والياً على الكوفة خمس سنين، في نهايتها اتهمه جماعة من أهل الكوفة بمعاقرة الخمر، وشهدوا بذلك عند عثمان، فعزله عن إمارتها وجلده حد الشارب أربعين جلدة، وولى مكانه سعيد بن العاص، فسأل عن أهل الكوفة، ووقف على حالهم، ثم أخبر عثمان باضطراب أمرهم، وأن أهل الشرف والبيوتات والسابقة غُلبوا على أمرهم وأن الغالب على تلك البلاد روادف قدمت، وأعراب لحقت، فكتب إليه عثمان بأن يفضل أهل السابقة، فأرسل سعيد إلى أهل القادسية، فطلب إليهم أن يبلغوه بحاجة ذوي الحاجة، وكثر اللغط في الكوفة، ففشت القالة فيها بالقدح في ولاة عثمان وفيه لتوليته إياهم، فكتب سعيد إلى عثمان، فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه، فقالوا: أصبت لا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل، فإنه إذا نهض في الأمور من ليس بأهل لها لم يحتملها وأفسدها. فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا، فقد دبت إليكم الفتن، وإني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه، فيقيم معه في بلاده، فقالوا: كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين؟ فقال: يبيعها من شاء بما كان له بالحجاز واليمن وغيرهما من البلاد، ففرحوا وفتح الله لهم أمراً لم يكن في حسابهم، وفعلوا ذلك، واشتراه رجال من كل قبيلة، وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق.

وفي عهد سعيد بن العاص فتحت طبرَسْتَان(١) . سار إليها ومعه الحسن والحسين ابنا عليّ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن الزبير، وناس من أصحاب النبي ﷺ، وفتحها مدينة بعد أخرى، وصالح أهلها، وذلك سنة ثلاثين، ثم سار سعيد

---

(١) طبرستان: وهي بلدان واسعة كثيرة، والغالب على هذه النواحي الجبال، خرج من نواحيها من لايحصى كثرة من أهل العلم والأدب.

وحذيفة لإمداد عبد الرحمن بن ربيعة الذي كان بالباب، فلما بلغا أذربيجان سيَّر سعيد حذيفة، وأقام هو رداءً له، فسار حذيفة وغزا مع عبد الرحمن، ثم رجع إلى سعيد فصبحه بالكوفة.

نقض أهل الإسكندرية الصلح

كان عامل مصر في أول خلافة عثمان، فاتحها عمرو بن العاص، وفي السنة الثانية من خلافته كاتب الروم قسطنطين بن هرقل (وكان الملك يومئذٍ) يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين، فكتب إليهم يأمرهم بنقض الصلح، ثم بعث رجلاً من أصحابه يدعى أمنويل في ثلاثمئة مركب مشحونة بالمقاتلة، فرست في ميناء الإسكندرية وتم القضاء على حامية المدينة من المسلمين بسهولة، نظراً لقلة عدد أفرادها.

ثم توغلوا في قرى الدلتا واستولوا على الغلال والأموال دون حساب، وعاملوا الأهالي معاملة الأعداء المحاربين، مستغلين فرصة غياب عمرو بن العاص عن مصر، وارتحال عدد كبير من جيشه، ولما ذاعت أخبار الثورة في الإسكندرية صدرت الأوامر إلى عمرو بتولي القيادة، هذا ما ذكره الطبري.

والظاهر أن عثمان كان قد عزله عن مصر، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

سار عمرو بن العاص في خمسة عشر ألفاً، والتقى بالجيش الروماني فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الروم، وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم جاء أهل قرى الدلتا إلى عمرو فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم التي استولى عليها الروم.

وقيل إن المقوقس ظل على عهده فلم ينقض الصلح، وعلى الأرجح أنه كان قد مات منذ زمن طويل.

فتح إفريقية والأندلس

كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح من جند مصر، وكان عثمان قد أمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحارث على جند، وسرحهما إلى الأندلس، وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب إفريقية، فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر، ووطئوا أرض إفريقية، فصالحهم أهلها على الجزية، ولم يتوغلوا في إفريقية لكثرة أهلها.

فلما ولي عبد الله بن سعد أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية، والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فجهز إليه العساكر من المدينة، وفيهم جماعة من أعيان الصحابة، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه، وكانوا بها، فسار إلى طرابُلُس الغرب[1] واستولى عليها، ثم سار نحو إفريقية، وبث السرايا في كل ناحية، وكان ملكها من قبل الروم، واسمه جرجير، وملكه من طرابلس إلى طنجة[2]، فلما بلغه خروج المسلمين تجهز، وجمع العساكر وأهل البلاد، فبلغ عسكره مئة ألف وعشرين ألف فارس، والتقى بالمسلمين بمكان بينه وبين سُبَيْطِلَة[3] ـ عاصمة ملكه ـ يوم وليلة، فأقاموا هناك يقتتلون، بعد أن راسله عبد الله يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فأبى إلا القتال، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فسير عبد الله بن الزبير ﷺ في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم، فلما وصل كَثُر الصياح والتكبير في المسلمين، فلما علم جرجير بالخبر فت في عضده، وأدرك عبد الله بن الزبير أن أمر القتال سيطول مع هؤلاء، فأشار عليه بأن يحتفظ بجيش من أبطال المسلمين في الخيام متأهبين، أمّا هم فيقاتلون بباقي العسكر، حتى إذا ما حل الوهن والضجر بالمشركين، خرجت عليهم الفرقة التي لم تشارك في القتال، فعمل بمشورته، فلما كان الغد، قاتل

---

(١) طرابُلُس الغرب: ويقال أطرابلس، ومعناها: الثلاث مدن، وهي على شاطئ البحر، مدينة معروفة في ليبيا.

(٢) طنجة: مدينة على ساحل بحر المغرب.

(٣) سُبَيْطِلَةُ: مدينة من مدن إفريقية بينها وبين القيروان سبعون ميلاً.

المسلمون إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما هم الروم بالانصراف، خرج عليهم المسلمون الذين كانوا مرتاحين في الخيام، وألحقوا بهم الهزيمة، وقتل جرجير، قتله عبد الله بن الزبير، وفتحت المدينة.

ولما فتح عبد الله مدينة سُبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة، فسبوا وغنموا، وسير عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحاصره ثم افتتحه صلحاً.

ولما افتتحت إفريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين، وعبد الله بن نافع بن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس من قبل البحر، فخرج المسلمون ومعهم البربر، فأتوها من برها وبحرها، ففتح الله عليهم وزاد في سلطانهم مثل إفريقية.

غزو معاوية رضي الله عنه الروم وفتح قبرص[١]

في أول ولاية أمير المؤمنين عثمان، جمع الشام كله لمعاوية بن أبي سفيان، وفي السنة الثانية من ولايته غزا معاوية الروم، فبلغ عَمُّورِيَة[٢] ، فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطَرَطُوس[٣] خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، حتى انصرف من غزاته، ثمّ أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسي الصائفة، وأمره ففعل مثل ذلك، ولما خرج هدم الحصون إلى أنطاكية وفي السنة الثامنة والعشرين، فتح معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قبرص، وكان معاوية قد ألح على عمر بن الخطاب في غزو البحر، إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك حدباً على المسلمين، وحرصاً على سلامتهم، حتى إذا كان زمن عثمان، كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، وألح عليه في ذلك، فأجابه عثمان، وأمره أن لايكره أحداً على الغزو، إلا أن يخرج طائعاً مختاراً، فجهز معاوية أسطولاً بقيادة عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، وسار المسلمون من الشام إلى

(١) قبرص: وهي جزيرة معروفة في البحر الأبيض المتوسط.

(٢) عمورِيةُ: بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم حين أسرت شراة العلوية سنة ٢٢٣هـ.

(٣) طَرَطُوسُ: بلد بالشام مشرفة على البحر .

قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر، فاجتمعوا عليها، فصالحهم أهلها على الجزية.

وكان في الغزوة بعض كبار الصحابة، أمثال أبي ذر الغفاري، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وزوجه أم حرام بنت ملحان، وكان رسول الله ﷺ قد أخبرها أنها تكون في أول المجاهدين الذين يركبون البحر.

أخرج مسلم عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة» أو «مثل الملوك على الأسرَّة» يشك أيهما قال، قالت: فقلت: يارسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحك يارسول الله؟ قال: «ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله»، كما قال في الأولى. قالت: يارسول الله: أدع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت من الأولين».

فلما فتح المسلمون قبرص، كانت أم حرام مع زوجها، فألقتها بغلتها عن ظهرها، فاندقت عنقها فماتت، وقبرها معروف في (لارناكا) يزوره القبارصة ويتبركون به.

قال جبير بن نفير: لما فتحت قبرص ونهب منها السبي، نظرت إلى أبي الدرداء يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل فيه الكفر وأهله؟ قال: فضرب منكبي بيده وقال: ثكلتك أمك ياجبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره... فصاروا إلى ما ترى، فسلط عليهم السباء، وإذا سلط السباء على قوم، فليس له فيهم حاجة.

وظل عبد الله بن قيس الجاسي أميراً على البحر، فغزا خمسين غزوة من بين

شاتية وصائفة في البر والبحر، لم يغرق فيه أحد، ثم خرج في قارب طليعة لمرفأ من مرافئ الروم، فنذروا[1] به فقتلوه.

تسيير أبي ذر رضي الله عنه إلى الربذة

من جملة المآخذ والمطاعن التي أخذت على عثمان، نفيه لأبي ذر إلى الربذة، والذي يدعو إلى الأسف أن عدداً كبيراً من الكتاب راحوا يجترون هذه الشبهة من غير تمحيص، ولو أمعن الباحثون النظر، وتعاطوا بموضوعية مع هذه المسألة، لأدركوا أن هذا الافتراء من شبهات السبئية[2]، وخلاصة ما جرى أن عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) استطاع خداع أبي ذر الغفاري، وحرضه على معاوية[3]، وحاول خداع أبي الدرداء، فأدرك بثاقب فطنته مقصدة، وقال له: أظنك والله يهودياً، وأتى ابن السوداء عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر، وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته، أو شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]. وكان يقوم بالشام ويقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم

---

(١) نذر بالشيء: علم به فحذره.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن طائفة من العلماء تصدوا لهذه الشبهة وغيرها من شبهات دارت حول عثمان، في تصانيفهم، كالقاضي أبي بكر بن العربي في العواصم من القواصم، وشيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة، وابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة. وخلاصة القول: إن عثمان خرج إلى الربذة طائعاً مختاراً، ذكره ولي الدين بن خلدون في العبر ٢/ ١٣٩، ونقله القاضي أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم، ص٧٦. وأكده الطبري في تاريخه ٢/ ٦١٥، وروى الحاكم في مستدركه رواية تؤكد ذلك، ٣/ ٣٤٤.

(٣) أتى ابن السوداء إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس، ويمحو اسم المسلمين؟! فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله، والخلق خلقه والأمر أمره؟! قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين.

وظهورهم، فمازال حتى أولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم، فكتب في شأنه إلى عثمان، فكتب إليه عثمان يأمره أن يسيّره إليه ويزوده ويرفق به، فلما قدم المدينة، ورأى المجالس في أصل سلع، قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء، وحرب مذكار. ودخل على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟ فأخبره، فقال: يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي، وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما علي أن أجبرهم على الزهد، فقال أبو ذر: لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان، ويصلوا القرابات. ثم طلب من عثمان أن يأذن له بالخروج من المدينة، وقال إن رسول الله ﷺ أمره بذلك إذا بلغ البناء سلعاً، فأذن له، فنزل الربذة وبنى بها مسجداً، وأقطعه عثمان قطعة من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى عليه العطاء. وكان يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً.

موقعة ذات الصواري

وأما سبب هذه الغزوة، فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم، خرج قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمئة مركب، أو ستمئة، وخرج المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح في نحو مئتي سفينة، وكانت الريح قد هبت فرست سفن الفريقين على الشاطئ، وبات المسلمون يقرؤون القرآن، ويصلون، ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقربوا من الغد سفنهم، وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها إلى بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقُتِل من المسلمين بشرٌ كثير، وقتل من الروم مالا يحصى، وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وانهزم قسطنطين جريحاً، ولم ينج من الروم إلا الشريد. وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً. ورجع.

وأما قسطنطين، فإنه سار في مركبه إلى صقلية، فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم، فقالوا: أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن

عندنا من يمنعهم، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

مقتل يزدجرد بن شهريار

كان يزدجرد قد تولى ملك فارس في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة، وقد تقدم أنه فر من المدائن بعد هزيمة رستم، وصار طريداً، يفرّ من مدينة إلى أخرى، حتى انتهى إلى بلاد الترك، فبيتهُ جماعة منهم فقتلوه سنة إحدى وثلاثين.

انتقاض أهل فارس والترك

لما قتل عمر بن الخطاب، نقض أهل فارس، وغدروا، فلما استخلف عثمان استعمل عبد الله بن عامر بن كريز البصرة سنة ثمانية وعشرين ويقال تسعة وعشرين، فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس. يفتح مدنها مدينة بعد أخرى، ففتح خراسان حتى وصل إلى إصطخر ففتحها عنوة، ثم فتح كرمان، وسجستان، وكابل[١].

وفي السنة الثانية والثلاثين غزا معاوية مضيق القسطنطينية، ومعه زوجته عاتكة بنت قرظة، وقيل فاختة.

وفي هذه السنة أوقع الخزر والترك بالمسلمين، وسببه أن الغزوات لما تتابعت عليهم تذامروا (تحاضوا على القتال وتلاوموا) وقالوا: كنا لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لانقوم لها.

فقال بعضهم: إن هؤلاء لا يموتون، وما أصيب منهم أحد في غزوهم. وقد كان المسلمون غزوهم قبل ذلك، فلم يقتل منهم أحد، فلهذا ظنوا أنهم لا يموتون. فقال بعضهم: أفلا تجربون؟ فكمنوا لهم في الغياض، فمرّ بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم، فتواعد رؤسهم إلى حربهم، ثم اتعدوا يوماً.

---

(١) كابل: ولاية ذات مروج كبيرة بين الهند وغزنة.

وكان عثمان قد كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب ينصحه أن لا يقتحم بالمسلمين، فتجاهل عبد الرحمن نصيحة عثمان، وزحف بجيشه يريد بَلَنْجَرَ[1]، وأوغل في مسيره، فتجمع عليه الترك والخزر، وقاتلوه قتالاً شديداً، حتى قتل، وتفرّق جيشه فرقتين: فرقة سارت نحو الباب، فالتقت بسلمان بن ربيعة أخي عبد الرحمن، الذي سيّره سعيد مدداً لأخيه، فنجوا معه، وفرقة سارت نحو جيلان[2] وجُرْجَان[3]، فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة، واستعمل سعيد مكان عبد الرحمن أخاه سلمان على غزو الباب، واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان، وأمدهم أمير المؤمنين عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتأمر عليهم سلمان بن ربيعة، ورفض حبيب أن يكون تحت إمرته، واشتد النزاع، فكان أول خلاف وقع بين الكوفيين والشاميين.

تسيير المشاغبين من أهل الكوفة إلى الشام

ولما دخلت السنة الثالثة والثلاثين سير عثمان ﷺ نفراً من أهل الكوفة إلى الشام، في الوقت الذي بدأت فيه الأوضاع تزداد اضطراباً هناك، والسبب في ذلك أن الذين نزلوا الكوفة من الصحابة كانوا قلة، أما أهل الفضل والسابقة من أهلها، فقد وزعهم سعيد ولاة على كُوَرِ الكوفة من بلاد فارس، وكان يجلس إلى سعيد كثير من أهل الكوفة للسمر، فبينما هم يتبادلون الحديث ذات ليلة، اختلفوا اختلافاً شديداً، وبلغوا درجة الإسفاف عندما استخفوا بصاحب الشرطة الذي نهاهم عن التنازع، فاعتدوا عليه بالضرب، ولم يستطع الوالي منعهم من ذلك، إلا أنه طردهم، فتركوا مجلس سعيد، وأقاموا في مجالس لهم، لا همّ لهم إلا الوقيعة بسعيد، ومن والاه، فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان بخبرهم، فكتب إليه

---

(١) بَلَنْجَرُ: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.

(٢) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما هي قرى في مروج بين جبال.

(٣) جُرْجَانُ: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

أن يحمل رؤساءهم إلى معاوية بالشام، وكتب إلى معاوية أن نفراً خلقوا للفتنة، فأقم عليهم، وانههم، فإن آنست منهم رشداً فاقبل، وإن أعيوك فارددهم علي.

فلما قدموا على معاوية أكرمهم، وأحسن وفادتهم، وأجرى عليهم أرزاقهم كما كانوا بالعراق، فلم تزدهم النعمة إلا بطراً، واستخفوا بمعاوية، واعترضوا على ولايته، فقال لهم: إنَّ رسول الله ﷺ كان معصوماً فولاني، وأدخلني في أمره، ثم استخلف أبو بكر فولاني، ثم استخلف عمر فولاني، ثم استخلف عثمان فولاني، ولم يولني أحد إلا وهو عني راضٍ، وإنما طلب رسول الله ﷺ للأعمال أهل الجزاء من المؤمنين والغناء، وإن الله ذو سطوات ونقمات، يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا الأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غيرما تظهرون، فإن الله غير تارككم حتى يختبركم، ويبدي للناس سرائركم.

وكتب إلى عثمان بخبرهم، فأرسل إليه أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، فلما وصلوا إليه دعاهم، فقال: يا آلة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً، وأنتم بعد في نشاط، خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم، لاتقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ [عين] الردّة، والله لئن بلغني يا صعصعة أن أحداً ممن معي دق أنفك، ثم غمصك، لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى.

فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم خلفه حتى قالوا: نتوب إلى الله، أقِلنا أقالَكَ الله، فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم.

ثم إن سعيد بن العاص أمير الكوفة، رحل إلى أمير المؤمنين في أمور تخص ولايته، واستخلف على عمله عمرو بن حريث، فقام جماعة من أهل الكوفة، كرهوا ولاية سعيد، واتفقوا على التوجه إلى عثمان واستعفائه منه، وكاتبوا من عند عبد الرحمن بن خالد، فساروا إليهم وخرج الجميع لذلك، فقابلهم سعيد في الطريق راجعاً فأخبروه خبره، فقال: كان يكفيكم أن ترسلوا لعثمان رجلاً وإليّ

رجلاً، ثم رجع إلى عثمان وأخبره بذلك، وقال: لهم يريدون البدل بي ويحبون أبا موسى، فولاه عثمان عليهم، وكتب إليهم:

أما بعد فقد أمّرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد، ووالله لأقرضنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه ولا يعصى الله فيه إلا ما استعفيتم منه أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم على الله حجة، ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون.

ثم جاء أبو موسى ودخل الكوفة وخطب أهلها، وأمرهم بلزوم الجماعة، ولم يزل والياً عليها حتى مات عثمان، كما سيأتي تفصيله.

الخروج على عثمان ومقتله رضي الله عنه

لم يعرف المسلمون فتنة أشد من الفتنة التي تعرض لها أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وانتهت بقتله بدم بارد، بلا جريرة ارتكبها وقد دأبوا. كما مر معنا. على الطعن في ولاة الأمصار بادئ الأمر، ثم راحوا يؤلبون الناس على عثمان ويشيرون إليه بأصابع الاتهام، وهم الظالمون في ذلك، وهو البارّ الراشد، المفترى عليه رضي الله عنه.

وخلاصة ما جرى، أنه مع حلول السنة الرابعة والثلاثين، بدأت الفتنة تذرّ قرنها في بعض الأمصار، وكان جمهور المنحرفين عن طاعة عثمان من أهل الكوفة، وقد ثار بعضهم على سعيد بن العاص، وتألبوا عليه، ونالوا منه ومن عثمان، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما نُسِبَ إليه من مطاعن واتهامات، وأغلظوا له في القول، وطلبوا منه أن يعزل عماله ويستبدل بهم غيرهم، حتى شقَّ ذلك عليه، وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم، كما سيأتي تفصيله.

دور الحركة السبئية في هذه المؤامرة :

خبت جذوة اليهود بعد الضربات التي تعرضوا لها في جزيرة العرب، بسبب خيانتهم ومكرهم، ونقضهم للعهود والمواثيق التي كانت تربطهم برسول الله ﷺ، وبرغم الدسائس والمؤامرات التي ما فتئوا يحيكونها ضد الإسلام والمسلمين من وراء الكواليس، إلا أنهم لم ينجحوا في استعادة أمجادهم الغابرة.

ومنذ ذلك الحين، لم يسجل التاريخ لليهود أي نشاط يذكر، لأن الدولة الإسلامية كانت قوية متماسكة، والمسلمون متراصّون.

إن أول نشاط ظهر بعد طرد اليهود من جزيرة العرب، اتسم بالتنظيم والتخطيط، كان على يد اليهودي الماكر، عبد الله بن سبأ، الذي أظهر الإسلام، ثم راح يتنقل في الديار الإسلامية، باثاً ضلالاته وشبهاته، حتى انتهى به المقام في مصر، حيث أظهر القول بالرجعة[1].

ثم أظهر القول بالوصاية، فزعم أن علياً رضي الله عنه وصي رسول الله ﷺ، وأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وراح يبث عملاءه في أنحاء العالم الإسلامي، وطلب إليهم أن يحركوا هذا الأمر، ويظهروا الطعن في أمرائهم، وأن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليستميلوا الناس إلى دعوتهم المشبوهة، فوجدوا لهم أنصاراً كثيرين من ضعاف الإيمان.

وقد تمخضت هذه الحركة الخبيثة عن مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه علي أيدي السبئية ومن شايعهم من المتمردين الذين نقموا عليه بغير حق، كما سيأتي تفصيله.

ونظراً للجهود الحثيثة التي كان يقوم بها أهل الفتنة، بدأت القالة تفشو في

---

(١) كان يقول لعنة الله عليه: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. الطبري: تاريخ ٢/٦٤٧.

الطعن على عثمان وولاته، فبلغت هذه الأخبار أهل المدينة، فسألوا عثمان عن ذلك، فقال: ما جاءني عن ولاتي إلا السلامة، وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا علي.

فأشاروا عليه أن يبعث رجالاً إلى الأمصار للتحقق من هذه الأخبار، فأرسل جماعة من الصحابة إلى الأمصار، فرجعوا إليه يخبرونه بكذب ما أشيع عن الولاة، إلا ما كان من عمار بن ياسر، فإنه انحاز إليه في مصر جماعة من السبئية، وملؤوه كلاماً في حق أمراء عثمان ومنعوه عن الرجوع إلى المدينة، فكتب عبد الله ابن سعد إلى عثمان يخبره، فأرسل عثمان إلى سائر الأمصار: فإني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي أو تصدقوا، فإن الله يجزي المتصدقين.

وبعث إلى عماله أن يوافوا الموسم فقدموا عليه، فاستشارهم في تسكين هذه الفتنة، فأشار عليه أحدهم بأن يشغلهم بالجهاد، وأشار آخر باستئصال شأفتهم وقطع دابرهم، وأشار آخر بأن يتألفهم بالمال، فيعطيهم منه ما يكفُّ به شرهم، وأشار معاوية بأن يردَّ عماله إلى أقاليمهم، ولا يلتفت إلى المفسدين، فعند ذلك قرر عثمان إعادة عماله إلى أقاليمهم، وتألف قلوب أولئك بالمال، وأمر بأن يبعثوا إلى الثغور، فجمع بين المصالح كلها.

ولما عاد عمال عثمان كل إلى عمله، امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص، وكتبوا إلى عثمان أن يولي أبا موسى الأشعري ﷺ، فأجابهم إلى ذلك.

مسير المتآمرين إلى المدينة:

لم يرتدع أهل الهوى والفتنة عن غيهم وطغيانهم، واستمروا في الطعن على عثمان، وتداعوا للخروج عليه، وجاءتهم كتب من المنحرفين بالمدينة، أنْ أقدموا فإن الجهاد عندنا، فاتعدوا شوال يخرجون فيه مظهرين الحج، فخرج

المصريون في خمسمئة عليهم الغافقي بن حرب العكي، وخرج أهل الكوفة وهم في عداد أهل مصر، وفيهم الأشتر النخعي، وأهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي، وهم في عداد أهل مصر، ولما كانوا من المدينة على ثلاث ليال، تقدم أهل البصرة فنزلوا ذا خشب، أما أهل الكوفة فنزلوا الأعوص، ثم نزلوا جميعهم بذي المروة، وكانت أهواؤهم مختلفة فيمن يلي الخلافة بعد عثمان، أهل البصرة يريدون طلحة، وأهل الكوفة يريدون الزبير، أما أهل مصر فكانوا يريدون علياً، فاجتمع وفد من أهل كل مصر، وذهبوا إلى كل من علي وطلحة والزبير، فأتى أهل مصر علياً، وعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لاصبحكم الله. وأتى البصريون والكوفيون إلى طلحة والزبير، فردا عليهم بمثل ذلك وقاما بطردهم، فرجع كل فريق منهم إلى قومهم، وأظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم، وساروا أياماً راجعين، ثم كرُّوا عائدين إلى المدينة، فما كان غير قليل حتى سمع أهل المدينة التكبير، وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاطوا بها، وجمهورهم عند دار عثمان، وقالوا للناس: من كف يده فهو آمن، فأقبل عليهم الصحابة يسألونهم عن سبب رجوعهم، فأخبروهم باكتشاف كتاب من عثمان إلى والي مصر بقتلهم. فقال لهم علي رضي الله عنه: كيف علمتم يا أهل الكوفة، ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة، فقال المتمردون العراقيون بلسان رؤسائهم: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا إلى هذا الرجل، ليعتزلنا، فأخذوا منهم الكتاب وسألوا عثمان: هل هو كاتبه؟ فقال: والله ما كتبت ولا أمرت ولا علمت. فقال المصريون: إذاً من كتبه؟ فقال عثمان: لا أدري. قالوا: فيجترئ عليك، ويبعث غلامك، وجمل من إبل الصدقة. وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة، وأنت لا تدري؟ قال: نعم. قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً، فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا، وإن كنت صادقاً، فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه، فاخلع نفسك.

قال: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله.

ثم قام الثوار بحصر أمير المؤمنين حصاراً شديداً، حتى منعوه الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فانبرى عدد كبير من أهل المدينة، وفيهم أبناء كبار الصحابة ليذبوا عن عثمان، فأمرهم بالانصراف، فانصرفوا إلا قليلاً منهم، ثم منعوا عنه الماء، فنهاهم علي عن ذلك، إلا أنهم أصروا على موقفهم، وجاءت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان مشتملة على إداوة، فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل، فكذبوها، وأغلظوا لها في القول، وقطعوا حبل دابتها بالسيف، ونالها منهم أمر عظيم، وكادت تسقط عن ظهر دابتها.

ولما وقع هذا أعظمه الناس جميعاً، ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين عائشة حاجّة، وقد سئمت المقام بالمدينة مع هذه الفتن، وطلبت من أخيها محمد بن أبي بكر أن يتبعها فأبى، وأمر عثمان عبد الله ابن عباس أن يحج بالناس، فقال: قتال هؤلاء أحب إلي من الحج، فعزم عليه إلّا ما أطاع، فخرج للحج، وكتب معه كتاباً يعلم المسلمين أمره، وما نزل به من الفتنة، ويحضهم على السمع والطاعة والتقوى، وعدم الاختلاف، فقرأه عليهم ابن عباس يوم التروية.

ثم منع المتمردون الناس من مخالطة عثمان ومكالمته، ولما خافوا أن يطول عليهم الأمر فتأتيهم جنود الأمصار، اقتحموا باب الدار، فقاتلهم جمع من أبناء الصحابة، وعزم عثمان عليهم أن يكفّوا عن القتال وخبرهم أنهم في حل من نصرته! فأحرق المتمردون الباب ودخلوا عليه وهو يقرأ القرآن، فلم يشغله ما رأى عن تلاوته، ثم قال لمن عنده بالدار: إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب إلا وهم يريدون أعظم منه، وأمرهم بالانصراف، فلم يفعلوا، وقاتلوا دونه، ولكن أنى لهم ذلك وهم في قلة والعدو كثير؟! فَقُتِلَ بعضهم وجرح بعض ونجا آخرون. ثم تسور بعض المتمردين دار بني حزم المجاورة لدار عثمان، ودخلوا عليه، فقال قائل: اخلعها وندعك. فقال عثمان:

ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تمنيت، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله، حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة، فخرج الرجل، ولم يصنع شيئاً، ثم جاء آخر، فقال له كما قال للأول، فرجع، فجاءهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال لهم: يا قوم لا تسلوا سيف الله فيكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه ويلكم إنّ سلطانكم اليوم يقوم بالدرة، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بالملائكة، فإن قتلتموه لتتركنها، فشتموه.

ثم دخل على عثمان الذين كتب عليهم الشقاوة فقتلوه، قتلهم الله، ظلماً من عند أنفسهم، في الشهر الحرام، في البلد الحرام، فكان أول قطرة من دمه الشريف سقطت على قوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧][(١)] . وكان قتله رضي الله عنه لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة.

المتآمرون على عثمان رضي الله عنه :

إن ما جرى يوم الدار من قتل الخليفة المفترى عليه، كان محصّلة مؤامرات مدروسة بشكل جيد، وتخطيط مبرمج، وجهود حثيثة اضطلع بها السبئيون الذين كانوا يسعون إلى القضاء على الدولة الإسلامية الفتية، عن طريق بث الفتن والضلالات والأباطيل بين صفوف المسلمين، لتتربع اليهودية الموتورة على أنقاضها من جديد.

فما جرى في تلك المرحلة المشؤومة من فتن وأحداث، لا يقدر على تحقيقه إلا العقلية اليهودية الماكرة، ولم ينته الدور اليهودي عند قتل الخليفة، حيث ظل اليهود ـ وخاصة أولئك الذين يتغطون بالإسلام ـ يكيدون للإسلام والمسلمين لتحقيق مآربهم وأهدافهم رغم تخلصهم من شخص الخليفة، فعاثوا في المدينة

---

(١) أخرجه أبو داود في المصاحف، ١/ ١٥٥، رقم الأثر ١.

الفساد، وكانوا أصحاب السلطة فيها طيلة أيام، كما استطالوا على بيت مال المسلمين فنهبوه.

ولم يتوقف الدور اليهودي عند هذا الحد، حيث استمرت عمليات التشويه والتضليل، يكتوي المسلمون بنارها حتى اليوم.

فالحادث الذي تعرض له أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وما تبعه من آثار ومطاعن استهدفت الخليفة نفسه من جهة، وصحابة النبي ﷺ من جهة أخرى، يؤكد بأن اليهود من السبئية قد استأنفوا حملتهم لتشويه سمعة الصحابة، وزعزعة مكانتهم في نفوس المسلمين، بما أثاروه حولهم من شبهات، وخاصة تلك الدعوى الكاذبة بأنهم هم الذين استباحوا دمه، لاقترافه أعمالاً تتنافى مع الشريعة الإسلامية على حد زعمهم.

علماً بأن الصحابة رضوان الله عليهم، لم يشاركوا قط في قتل الخليفة، ولم ينقموا عليه كما يزعم بعضهم، وعرضوا عليه النصرة، وفيهم علي ﷺ، وأبناؤه وجمّ غفير من خيرة الصحابة وأبنائهم، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، ولاقتل ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين من أوباش القبائل وأهل الفتن»[(١)].

وتشير كثير من الروايات إلى أن السبئيين هم الذين زوروا الرسائل على لسان علي وعائشة وطلحة والزبير ﷺ، وكان لهذه الرسائل بالغ الأثر في استشراء هذه الفتنة التي شوهت وجه التاريخ الإسلامي، واستطاعت أن توجه الأحداث الوجهة التي أرادها السبئيون، لتنتهي إلى ما انتهت إليه من مواقف مفجعة.

أبرز قادة المؤامرة ودوافعهم من ورائها:

الذين خلعوا عصا الطاعة، ورفعوا راية العصيان، وساروا في ركاب

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة، ٢/١٨٦.

الشيطان، وفتحوا باب الشر على هذه الأمة إلى قيام الساعة، لم يكونوا من الصحابة، ولم يقصدوا وجه الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما زعموا «وإذا نظرت إليهم دلك صريح ذكرهم على دناءة قلوبهم وبطلان أمرهم»[1].

يقول الأستاذ المرحوم محب الدين الخطيب في هذا الصدد ما نصه: «الذين شاركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب: منهم الذي غلب عليه الغلو في الدين، فذكروا الهنات وارتكبوا في إنكارها الموبقات، وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية على شيوخ الصحابة من قريش، ولم تكن لهم سابقة، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا من مغانم شرعية جزاء جهادهم وفتوحهم، فأرادوا أن تكون لهم مثلها بلا سابقة ولا جهاد، وفيهم الموتورون ...»[2].

وذكر النوبختي كبير علماء الشيعة في القرن الثالث الهجري أن الذين نقموا على عثمان رضي الله عنه، كانوا من أهل الردة[3] أبرز هؤلاء: الغافقي بن حرب العكي، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران، وعمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وحكيم بن جبلة العبدي، والأشتر النخعي، وغيرهم من أتباع عبد الله بن سبأ.

وعندما أعد المتآمرون عدتهم للزحف على المدينة، كان رئيسهم العام الغافقي هذا، ثم لما أقنعهم الشيطان بالجرأة على الجناية الكبرى، كان الغافقي أحد المجترئين على الخليفة، فضربه بحديدة معه، ورفس المصحف برجله فاستدار.

أما كنانة بن بشر وكان أميراً على إحدى الفرق، وكان ممن دخل على عثمان،

---

(١) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، ص ١١١.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٨، من تعليقات الأستاذ محبّ الدّين الخطيب على العواصم.

(٣) النوبختي: فرق الشيعة، ص٥٢.

فأشعره مشقصاً[1]، فانتضح الدم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ثم قطع يد نائلة زوجة عثمان، واتكأ بالسيف على صدره فقتله.

أما حكيم بن جبلة فكان من قبائل عبد القيس، توطن بالبصرة بعد تمصيرها، وكان حكيم هذا شاباً جريئاً، يرافق الجيوش الإسلامية في فتوحاتها، ويجازف في بعض حملات الخطر، كما تفعل كتائب (الكوماندوس) في هذا العصر، ويروي الطبري: أن حكيم بن جبلة كان إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم، ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع، فشكاه أهل الذمة إلى عثمان، فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً، فحبسه ومنعه من مبارحة البصرة.

وذكر الطبري أن السبئية لما قرروا الزحف من الأمصار، كان حكيم هذا على إحدى الفرق، ولما رحل الثوار عن المدينة في المرة الأولى بعد مناظرتهم لعثمان وسماعهم دفاعه واقتناعهم، تخلف في المدينة الأشتر وحكيم بن جبلة، وفي ذلك شبهة قوية بأن لهما دخلاً في افتعال الكتاب المزور على أمير المؤمنين[2].

ولما جاءت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وأوشكوا أن يتفاهموا مع أمير المؤمنين عليّ على ردِّ الأمور إلى نصابها، كان حكيم بن جبلة هو الذي أنشب القتال لئلا يتم التفاهم والاتفاق.

كما ارتكب دناءة قتل امرأة من قومه، سمعته يشتم أم المؤمنين عائشة، فقالت

---

(١) المشقص: النصل الطويل العريض.

(٢) ذكر القاضي أبو بكر بن العربي أن تزوير الكتب في مأساة البغي على عثمان كان من أسلحة البغاة، استعملوه في كل وجه، وفي كل الأحوال، وروي أن محمد بن أبي حذيفة، ربيب عثمان الآبق من نعمته، كان يؤلب الناس في مصر على عثمان، ويزور الكتب على لسان أزواج النبي ﷺ، ويأخذ الرواحل فيضمرها ويجعل رجالاً على ظهور البيوت في الفسطاط وجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق الحجاز بمصر، ثم يرسلون رسلاً يخبرون عنهم الناس ليستقبلوهم، فإذا لقوهم قالوا إنهم يحملون كتباً من أزواج النبي ﷺ في الشكوى من عثمان، وتتلى هذه الكتب على ملأ الناس، وهي مكذوبة مزوّرة.

له: يا بن الخبيثة أنت أولى بذلك! فطعنها فقتلها[١] .

ويبدو أن أكثر هؤلاء، كانوا من الموتورين، الناقمين على عثمان بغير حق، ومنهم من كان يثير الشغب في الكوفة، فسيره عثمان إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فنزلوا عنده إلى أن تظاهروا بالتوبة، فرضي عنهم عثمان، وأباح لهم الذهاب حيث يشاؤون، كما قدمنا.

إلا أنهم رجعوا عن توبتهم، وأبوا إلا أن يشقوا عصى الطاعة، وسفكوا دم الخليفة بغير حق. وذكر الواقدي أن عمير بن ضابئ البرجمي[٢] . وهو من قادة الفتنة . نزا على سرير عثمان رضي الله عنه، وهو موضوع للصلاة عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: أحبست ضابياً حتى مات في السجن؟!

وقد ذكر الطبري وغيره أن عمير بن ضابئ قد اجتمع بالكوفة مع نفر من أهل الفتنة، وتوافقوا على قتل عثمان رضي الله عنه، منهم الأشتر النخعي، وزيد بن صوحان، وكعب بن ذي الحبكة[٣]، وكميل بن زياد النخعي، فتعهد عمير بن ضابئ هذا وكميل بن زياد بقتله، فركبا إلى المدينة، فأما عمير فإنه نكل عنه، وأما كميل فإنه حاول قتل الخليفة، وكمن له في طريقه إلى المسجد، وثار في وجهه، فوجأ عثمان وجهه فوقع على استه، فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين، قال: أولست بفاتك؟! قال: لا، والذي لا إله إلا هو، فاجتمع الناس وقالوا: نفتشه يا أمير المؤمنين، فقال: لا، قد رزق الله العافية، ولا أحب أن أطلع منه على غير ما قال، ثم قال لكميل: إن كان كما قلت فاقتد مني (وجئا) فو الله ما حسبتك إلا تريدني، وقال: إن كنت صادقاً فأجزل الله، وإن كنت كاذباً فأذلّ الله، وقعد له على قدميه، وقال: دونك، فقال كميل: تركت.

---

(١) الطبري: تاريخ ٣/١٦ و١٨ و١٩، وابن الأثير: تاريخ ٣/١٠٩.

(٢) عمير بن ضابئ البرجمي: شاعر من سكان الكوفة، وكان أبوه قد مات في سجن عثمان، بقتله صبياً بدابته، ولهجائه قوماً من الأنصار.

(٣) كعب بن ذي الحبكة: شاعر من أهل الكوفة، اتهم بمزاولة السحر، فأرسل عثمان إلى الوليد بن عقبة (والي الكوفة) بأمره، فأقر بذلك، ضربه الوليد ونفاه من الكوفة، فلما كانت الفتنة في المدينة كان كعب هذا أحد رؤسائها.

ولما بلغ سعد بن أبي وقاص خبر مقتل عثمان، دعا عليهم، فقال: اللهم أندمهم ثمّ خذهم، وقد أقسم بعض السلف بالله إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً[١].

كذلك كانت نهاية كل معتدٍ أثيم على عثمان، من هذا القبيل ما رواه الواقدي من أن رجلاً يدعى جهجاه الغفاري، أهان عثمان وهو يخطب إبان فترة الحصار، وأخذ منه عصا رسول الله ﷺ التي كان يخطب عليها، فكسرها على ركبته اليمنى، فدخلت شظية فيها، فأصابتها الأكلة، حتى صار يخرج منها الدود[٢].

وأخرج البخاري في التاريخ عن محمد بن سيرين، قال: كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفرلي، وما أظن أن تغفر لي، فقلت: يا عبد الله ما سمعت أحداً يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل وضع على سريره في البيت والناس يجيئون يصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة فدفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته وقد يبست يميني، قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود[٣].

موقف الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الفتنة :

لم يكن الصحابة رضوان الله عليهم ببعيدين عن مسرح الأحداث التي جرت في هذه الفتنة، وقد يتبادر إلى الأذهان. من كثرة ما أشيع حول الصحابة من أباطيل - أنهم توانوا عن نصرة الخليفة والدفاع عنه في أحرج الأوقات، فضلاً عن الدعوى الكاذبة التي ألصقت بهم من أنهم شاركوا في قتله كما يزعم المغرضون.

وقد أجمعت مختلف المصادر أنه كان في الدار قريب من سبعمئة صحابي، منهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين ابنا علي، وزيد بن ثابت، ومروان بن الحكم، وأبو هريرة، وابنا طلحة بن عبيد الله، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه.

---

(١) رواه ابن جرير كما في البداية والنهاية، ٧/ ١٨٩.

(٢) الطبري: تاريخ ٢/ ٦٦٢، وابن الأثير: ٣/ ٨٤، وابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١٧٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧٢/ ١٩١.

موقف علي ﵁ من هذه الفتنة :

لم يكن عليّ بعيداً عن مسرح الأحداث، وقد حاول بادئ ذي بدء أن يعالج الموقف، ويضع حداً لهذه الفتنة، عن طريق الوعظ والإرشاد لأولئك الجناة، كي يعودوا إلى جادة الصواب، ويكفوا عما هم فيه من شق العصا، وإعراض عن الجماعة، والملفت للنظر أنه راح يناظرهم ويناقشهم فيما أشاعوه حول الخليفة من مطاعن، وراح يرد شبهاتهم الواحدة تلو الأخرى، ويفند مزاعمهم بالحجة والبرهان، فسألهم في بداية المناظرة: ماذا ينقمون عليه؟ فذكروا أشياء منها، أنه حمى الحمى، وأنه حرّق المصاحف، وأنه أتم الصلاة، وأنه ولى الأحداث الولايات وترك الصحابة والأكابر، وأعطى بني أمية أكثر من الناس، فأجاب علي عن ذلك: أما الحمى فإنما حماه لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه، وقد حماه عمر من قبله، وأما المصاحف فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه. وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها، وأما تولية الأحداث فلم يول إلا رجلاً سوياً عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد، وطعن الناس في إمارته فقال: «إنه لخليق بالإمارة»، وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشاً على الناس، و والله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها.

وقال مدافعاً عنه في خطبة له: أيها الناس، إياكم والغلو في عثمان، تقولون حرّق المصاحف، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو وليت مثل ما ولي لفعلت مثل الذي فعل[1].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/٢١٨، وقد نقل بعض علماء الشيعة هذه الخطبة، حيث جاء في كتاب (تاريخ القرآن) لأبي عبد الله الزنجاني، ص٤٦: أن علي بن موسى المعروف بابن طاووس وهو من علمائهم نقل في كتابه (سعد السعود) عن الشهرستاني في مقدمة تفسيره عن سويد بن علقة قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: «أيها الناس، الله الله، إياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم حراق المصاحف»، وساقه بنحوه.

ولكن على ما يبدو أن جهود أمير المؤمنين علي ﷺ، تلك التي بذلها مع المتآمرين، قد ذهبت أدراج الرياح، ولم تفلح في التخفيف من غلوائهم، ولما أحسّ بخطورة الموقف، ذهب بصحبته كبار الصحابة إلى عثمان، وطلبوا إليه أن يأذن لهم بمناجزتهم، إلا أن عثمان، الأوّاه الحليم، ذو القلب الرحيم، رفض ذلك بشدة، وجعلهم في حلّ من نصرته.

وذكر ابن ميثم البحراني الشيعي أن الإمام علي انعزل عنه بعد أن دفع عنه طويلاً بيده ولسانه فلم يمكن الدفع[1]، نابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغن شيئاً[2].

وقد أكد ذلك أمير المؤمنين علي نفسه، حيث قال: والله لقد دفعت عنه حتى حسبت أن أكون آثماً[3].

لأن أمير المؤمنين عثمان منعهم من الدفاع عنه، وقال: أعزم عليكم لما رجعتم فدفعتم أسلحتكم، ولزمتم بيوتكم[4].

وقد صارت هذه القضية فيما بعد مثار جدل بين الفقهاء، هل يجب طاعة الإمام في هذا الأمر، أم ينبغي مخالفته والاضطلاع بمهمة الدفاع عنه، والقتال دونه رغم إرادته[5]؟

ولما بلغ علياً ﷺ مقتل عثمان، خرج حتى دخل عليه ومعه طلحة والزبير، فوجدوه مقتولاً، فنظر علي إلى ولديه الحسن والحسين ﷺ، وقد ذهب عقله فقال: كيف يقتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟! ورفع يده فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، ثم وقع عليه وجعل يبكي حتى ظن الصحابة أنه سيلحق به.

---

(١) ابن ميثم البحراني: شرح نهج البلاغة، ٤/ ٣٥٤.
(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١٤/ ٣٧.
(٣) المرجع نفسه، ٣/ ٢٩٧.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ١/ ١٥١ ـ ١٥٢.
(٥) كما فصله القاضي أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم.

ولم يخف أمر أولئك المجرمين القتلة ـ ممن عدا على عثمان ـ على أمير المؤمنين علي، حين بين حالهم في خطبته التي ألقاها فيما بعد على الغرائر في معسكره في الكوفة، عندما كان الصحابي الفارس المجاهد القعقاع بن عمرو التميمي، يسعى لإتمام المهمة التي جاءت عائشة وطلحة والزبير من أجلها، فروى الطبري أن علياً ذكر إنعام الله على الأمة بالجماعة والخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، وقال على مسمع من قتلة عثمان: ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما أراد، ثم ذكر أنه راحل غداً إلى البصرة، ليجتمع بأم المؤمنين وأخويه طلحة والزبير، وقال: ألا لايرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم[1]».

موقف عثمان رضي الله عنه من هذه الفتنة:

يحار القارئ في موقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه من هذه الفتنة، حين حُصِر في داره، ومنع المسلمين من الدفاع عنه، وهو يدرك مصيره المحتوم، وقد علم أنه مقتول لا محالة.

فيروي الطبري وغيره أن المجرمين حينما أحاطوا به قالوا له: لسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك، فقال: أما أن أبرأ من خلافة الله، فالقتل أحبُّ إلي من ذلك، وأما قولكم تقاتلون من معي، فإني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير إذني قاتل[2].

ويبدو بوضوح من خلال الأحداث التي واكبت تلك الفتنة أن قادتها كانوا يخططون لها بشكل دقيق أولاً بأول، وقد وضعوا نصب أعينهم هدفاً واحداً يتمثّل في إقالة الخليفة، ولو بإراقة دمه، وإزهاق روحه، وهذا ما حصل بالفعل.

---

(١) الطبري: تاريخ، ٢/ ٣٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٢٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ، ٢/ ٦٦٧.

وثمّة محاولات بذلها ﷺ لإطفاء الثائرة، وتهدئة المتمرّدين بالأسلوب السّلمي، الذي يستند إلى منطق العقل، فناظرهم وفنّد مزاعمهم ودعاويهم، فما استطاعوا أن يثبتوا عليه شيئاً مما افتراه المغرضون، فعادوا أدراجهم مقتنعين بأجوبته التي لم يكن يرقى إليها الشك من باب.

إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل، عندما أطلق المتآمرون طلقتهم الأخيرة القاتلة، ولعبوا ورقتهم الأخيرة الرابحة، عندما زوّروا كتاباً على لسان عثمان إلى ولاته يقضي بقتلهم، فعادوا إلى المدينة من جديد.

وقد أجمعت مختلف المصادر، أن المتمرّدين قد عادوا راضين في المرة الأولى إلى ديارهم، بعد أن اقتنعوا بدفاع عثمان أمام جموعهم، فبينما هم كذلك إذا راكب يتعرّض لهم، ثم يفارقهم مراراً، قالوا: مالك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه، فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه إلى عامل مصر أن يصلبهم ويقطع أيديهم وأرجلهم.

ولو تفحصنا هذه الحادثة بدقة، لاكتشفنا أن حامل هذا الكتاب المزعوم كان شريكاً في المؤامرة على عثمان، ولم يكن رسوله على الإطلاق، ولو كان رسولاً لأمير المؤمنين، لما تصرّف بهذه الطريقة، ولكان ابتعد عن طريق القافلة حتى لا يراه أحد، وخاصة أنه يحمل رسالة بالغة الخطورة، وقد فطن عليّ لهذه المؤامرة بعد عودتهم، فقال بعد أن سألهم عن سبب رجوعهم: هذا والله أمر أبرم بالمدينة. ولو فكّر الباحثون جيّداً، لأدركوا أن الأمر لم يَعْدُ كونه مؤامرة دبّرت بليل، ولا سيّما أن عثمان كان قد أذن لعامله في مصر (عبد الله بن سعد) بالمجيء إلى المدينة، وكان قد بعث إليه رسولاً من طرفه عقب خروج المصريين مباشرة، وقد أسرع بالمسير ليعلمه بمخرجهم وأنهم يتذرعون بالعمرة، ثم إن ابن سعد خرج في أثرهم بعد أن كتب إلى أمير المؤمنين يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له[1]، فكيف يكتب إليه، وهو يعلم علم اليقين أنه خرج من مصر؟!

---

(١) الطبري: تاريخ، ٢/ ٦٦٨، ابن الأثير: تاريخ ٣/ ٨١، وابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ٢٥١.

وجاء في رواية أن رسول عبد الله بن سعد، سار إحدى عشرة ليلة حتى وصل إلى المدينة قبل أن يصلها المصريون، وأخبر عثمان بحقيقة أمرهم، فخطب الناس وأخبرهم بذلك، وقال: هؤلاء قوم من أهل مصر، يريدون بزعمهم العمرة، والله ما أراهم يريدونها، ولكن الناس قد دُخِلَ بهم، وأسرعوا إلى الفتنة، وطال عليهم عمري، أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري قد طال عليهم، فكان كل يوم بسنة ممّا يرون من الدماء المسفوكة، والإحن والأثرة، والأحكام المغيرة[1].

ورغم إدراك عثمان لخطورة الموقف، إلاّ أنه أخذ عهداً على المدافعين عنه بعدم القتال والانصراف عنه إلى منازلهم، وقال لهم: أقسم على من لي عليه حق أن يكفّ يده وأن ينطلق إلى منزله، وقال لرقيقه: من أغمد سيفه فهو حرّ، وقال: إني أرجو أن ألقى الله وليس في عنقي قطرة دم امرئ مسلم[2].

فما هي الحوافز والدوافع النفسية التي جعلت عثمان يقف هذا الموقف؟!

للإجابة عن هذا السؤال، لابدّ أن نعود إلى سنّة رسول الله ﷺ، للوقوف على الأحاديث التي تتصل بالفتن، وخاصة هذه الفتنة التي نحن بصددها.

فعندما نتصفح مصادر السنة المطهّرة، نلاحظ أن رسول الله ﷺ قد عرض لهذا الموضوع بكثير من التفصيل، حيث عمد إلى تصوير الفتن التي تقع بين المسلمين، وليس ذلك فحسب، بل نصح بالابتعاد عنها، وعدم المشاركة في إشعال فتيلها، حتى لو دفع المسلم حياته ثمناً لذلك.

هذا وقد أخبر رسول الله ﷺ بعض صحابته من ضحايا الفتن بمصيرهم المحتوم، وأوصاهم بالصبر على البلاء، وقد سلط رسول الله ﷺ أكثر الأضواء على مقتل عثمان رضي الله عنه، فأشار إلى ذلك في أكثر من حديث.

من هذا القبيل ما روي من حديث قيس بن أبي حازم عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

---

(١) الطبري: تاريخ، ٣/ ٦٥٧، وابن الأثير: تاريخ ٣/ ٨١.

(٢) الطبري: تاريخ، ٢/ ٢٧٢، وابن الأثير: تاريخ ٣/ ٩٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٨١.

قال رسول الله ﷺ في مرضه: «وددت أن عندي بعض أصحابي» قلنا: يا رسول الله! ألا ندعولك أبا بكر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت. قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: «نعم»، فجاء فخلا به، فجعل النبي ﷺ يكلّمه، ووجه عثمان يتغيّر، قال قيس: فحدثني أبو سهلة[١] مولى عثمان: أن عثمان بن عفان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً، فأنا صائر إليه، وقال علي في حديثه: وأنا صابر عليه[٢].

وثمّة حديث رواه الشيخان والنسائي وأحمد وغيرهم عن أبي موسى الأشعري، وفيه يأتي أبو موسى إلى رسول الله ﷺ، وقد دخل بئر أريس، فجلس عليها وتوسّط حافتها، وكشف عن ساقيه ودلّاهما في البئر، فسلّم عليه ثمّ انصرف، ولزم الباب، فجاء أبو بكر رضي الله عنه يستأذن، فقال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «إئذن له وبشره بالجنة» ثمّ جاء عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك، ولم يلبث عثمان أن جاء، فقال: «إئذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه».

وروى الطبري وغيره أن عثمان حين فوجئ بالمتآمرين يحرقون باب الدار ويقتحمون عليه، قال لمن معه: لا يحركن رجل منكم يده، فوالله لو كنت أقصاكم لتخطوكم حتى يقتلوني، ولو كنت أدناكم ما جاوزوني إلى غيري، وإنّي لصابر كما عهد إليّ رسول الله ﷺ، لأصرعن مصرعي الذي كتب الله ﷻ[٣].

وكان عثمان يصرّح بعهد رسول الله ﷺ الذي عهده إليه في بعض المواقف، من هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد أن عثمان قال لابن مسعود: هل أنت منته عمّا بلغني عنك؟ فاعتذر بعض العذر فقال عثمان: ويحك إنّي سمعت وحفظت، وليس كما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: «سيقتل أمير وينتزي منتز» وإني أنا المقتول وليس عمر، إنما قتل عمر واحد وإنّه يجتمع عليّ.

---

(١) أبو سهلة: السائب بن خلاد بن سويد.

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك، ٣/ ٩٩.

(٣) الطبري: تاريخ، ٢/ ٦٦٩.

وعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة فقال أبو بكر: أنا أدركها؟ قال: «لا»، قال عمر: أنا يا رسول الله! أدركها؟ قال: «لا»، فقال عثمان: يا رسول الله! أنا أدركها؟ قال: «بك يبتلون»(١).

وأخرج أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمر، قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فمرّ رجل، فقال: «يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوماً»، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأخرج أحمد وابن ماجه والترمذي عن كعب بن عجرة، قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرَّبَها وعظمها، قال ثمّ مرّ رجل مقنع في ملحفة، فقال: «هذا يومئذٍ على الحق» فانطلقت مسرعاً، أو قال (محضراً) فأخذت بضبعيه فقلت: هذا يا رسول الله؟! قال: «هذا»، فإذا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد أوصى رسول الله ﷺ المسلمين بعدم التخلّي عن عثمان في الفتنة التي تصيبه؛ فعن عبد الله بن حوالة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في ظلّ دومة(٢)، وعنده كاتب يملي عليه، فقال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: فيم يا رسول الله؟ فأعرض عني وأكب على كاتبه يملي عليه، ثمّ قال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة؟» قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله، ويكرّر رسول الله ﷺ السؤال على ابن حوالة، ويجيبه بمثل ذلك في كل مرة، ثمّ يخبره عن الفتن ويوصيه أخيراً بقوله: «ابتغوا هذا» ورجل مقفى حينئذٍ، قال: فانطلقت فسعيت وأخذت بمنكبه، فأقبلت بوجهه إلى رسول الله ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: «نعم»، قال: فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه(٣).

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي هريرة؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أورده الهيثمي وقال: رواه البزار وفيه ماعز التميمي، وذكره ابن أبي حاتم ولم يجرّحه أحد، وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد، ٧/ ٢٢٥، ورواه ابن كثير في البداية والنهاية، ٧/ ٢٠٩.

(٢) دومة: نوع من الشجر، أو شجرة عظيمة.

(٣) كذا في البداية والنهاية، ٦/ ١٩٦ و ٧/ ٢١١، وأخرجه أبو داود الطيالسي وأحمد والطبراني عنه كما في المنتخب ٥/ ٤٠٢ وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ٩/ ٨٩.

يقول: «ستلقون بعدي فتنة واختلافاً» أو قال: «اختلافاً وفتنة»، فقال له قائل: يا رسول الله بما تأمرنا؟ قال: «عليكم بالأمير وأصحابه» وهو يشير بذلك إلى عثمان رضي الله عنه.

وأوصى رسول الله ﷺ عثمان بالصبر على البلاء، وحذّره من مغبة التخلي عن الخلافة، لحكمة ما لم يفصح عنها، ربما كي لا تذهب سنة بين المسلمين كلما أرادوا خلع خليفة خلعوه؛ فبعد أن نعى إلى عثمان نفسه، أخذ عليه عهداً أن لا يخلع نفسه من منصبه.

أخرج ابن ماجه وأحمد والترمذي والحاكم عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ «يا عثمان! إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله، فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاث مرّات، قال النعمان بن بشير: فقلت لعائشة: ما منعك أن تعلمي الناس بهذا؟ قالت: أُنسيته.

وفي رواية: «يا عثمان إن الله عز وجل يقمصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه ولا كرامة»، يقول مرتين أو ثلاثاً[1].

وممّا لا ريب فيه أن النبوءة التي كشف رسول الله ﷺ النقاب عنها، والتي تتعلق بمصير عثمان المحتوم، والعهد الذي عهده إليه، بالتزام جانب الصبر، وعدم التخلي عن موقعه في الخلافة، كان له بالغ الأثر في التزامه بهذا الموقف المدهش، الذي لم يعرف التاريخ نظيراً له على الإطلاق، حيث رضي ـ طائعاً مختاراً ـ أن يكون عبد الله المقتول، لا عبد الله القاتل، ولا سيما أنه كان قادراً على استئصال شأفة المجرمين والقضاء عليهم، ولو فعل لما كان ثمة حرج في ذلك، ولكنه توجه إليهم بالوعظ والإرشاد، وهو يدفع شبهاتهم، فاقتنعوا ببراءته ـ بادئ الأمر ـ كما سبق وذكرنا، فعادوا إلى ديارهم، لكن كان لابدّ لأمر الله تعالى أن ينفذ، فعندما عادوا في المرّة الثانية، وهم يحملون في نفوسهم إصراراً عجيباً على إقالة الخليفة ولو بقتله، نتيجة المكيدة التي تمت حياكتها بإحكام، وفي الوقت الذي بدأ فيه الصحابة يعدّون العدة لمناجزتهم، وقد عرضوا النصرة

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم والترمذي.

على عثمان ، إلا أنه أصرّ على عودتهم إلى منازلهم والكف عن القتال، فاستسلم وأسلموه برضاه كما يقول القاضي أبو بكر بن العربي.

ويعلّق القاضي على هذا الموقف بقوله: «وهي مسألة في الفقه كبيرة: هل يجوز للرجل أن يستسلم أم يجب عليه أن يدافع عن نفسه؟ وإذا استسلم وحرّم على أحد أن يدافع عنه بالقتال، هل يجوز لغيره أن يدافع عنه ولا يلتفت إلى رضاه؟ اختلف العلماء فيها»[(١)].

وبالنتيجة فقد واجه عثمان ﷺ هذه الفتنة بكل شجاعة ورباطة جأش، وهو يعلم علم اليقين أنه سيكون ضحيتها، فواعجباه لقوم يستهينون بخليفتهم فيسفكون دمه في وقت كان حريصاً أشدّ الحرص على دمائهم وهم البغاة الظالمون.

لذلك قال المحبّ الطبري لافتاً النظر إلى هذه الميزة في شخصية عثمان: فيما رواه عن عبد الرحمن بن معدي: كان لعثمان شيئان ليسا لأبي بكر وعمر: صبره على نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف[(٢)].

وثمة عوامل أخرى دفعت عثمان إلى إيثار القتل على القتال وسفك الدماء، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصيته الفريدة، التي تمتاز بشدّة الحلم، والرقة، والشفقة على المسلمين، ولشدّة التزامه بهذا المبدأ رماه أهل السوء والفتنة باللّين، وكان من نتيجة ذلك أن سدنة الشيطان قد استغلوا هذا الجانب من شخصيته، فراحوا يشيعون من حوله الشبهات والأكاذيب، كإحراق المصاحف، وجمع الناس على مصحف واحد، وإيثاره بني أمية على غيرهم، وإسرافه في أموال المسلمين، ونفيه لأبي ذر ﷺ إلى الربذة، وغير ذلك كثير ممّا أسرفوا في الحديث عنه بغير حق.

ويبدو أن عثمان قد رأى رؤيا، في آخر ليلة من ليالي الحصار، دلت على اقتراب أجله، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده، وشوقاً إلى رسول الله ﷺ[(٣)].

---

(١) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، ص ٦٠.

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة، ٣/ ٣٢، وعزاه الهيتمي في الصواعق المحرقة لابن عساكر، ١/ ٣٢٩.

(٣) انظر البداية والنهاية، ٧/ ١٨١.

حيث روي من طرق صحيحة، أن عثمان رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: «يا عثمان أفطر عندنا»، فأصبح صائماً وقتل من يومه[1].

ومن الواضح أنه كان يعيش لحظاته النورانية الأخيرة بعد أن أخبره رسول الله ﷺ من خلال الرؤيا التي رآها أنه في انتظاره.

وروى ابن كثير من طريق محمد بن سعد، عن نائلة بنت الفرافصة (زوجة عثمان)، قالت: أغفى عثمان فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلونني، قلت: كلا يا أمير المؤمنين، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فقالوا: أفطر عندنا الليلة، أو إنك مفطر عندنا الليلة.

وروى عنها من طريق أخرى، قالت: لما حصر عثمان ظلّ اليوم الذي كان فيه قتله صائماً، فلما كان عند إفطاره سألهم الماء العذب فأبوا عليه، وقالوا: دونك ذلك الركى، وركى الدار الذي يلقى فيه النتن، قالت: فلم يفطر فرأيت جاراً على أحاجير متواصلة. وذلك في السحر. فسألتهم الماء العذب،فأعطوني كوزاً من ماء، فأتيته فقلت: هذا ماء عذب أتيتك به، قالت: فنظر فإذا الفجر طلع فقال: إني أصبحت صائماً، قالت: ومن أين أكلت؟ ولم أر أحداً أتاك بطعام ولا شراب؟ فقال: إنّي رأيت رسول الله ﷺ اطّلع عليّ من هذا السقف ومعه دلو ماء فقال: «اشرب يا عثمان» فشربت حتى رويت، ثم قال: «ازدد»، فشربت حتى نهلت، ثم قال: «أما إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا»، قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه[2].

النتائج العامة التي توصلنا إليها من خلال هذا الفصل

لا يسع الباحث المنصف . وهو يتتبع يوميات تلك المؤامرة الدنيئة التي ذهب ضحيتها خليفة رسول الله ﷺ . إلاّ أن يقرّ بالحقائق التالية:

١ ـ سيتأكد . ولابد . من خلال القراءة الأولى لوقائعها، أن الصحابة رضوان الله عليهم أبرياء مما نسبه إليهم المغرضون.

---

(١) الطبري: تاريخ، ٢/ ٦٧١، وابن الأثير: تاريخ، ٣/ ٩٠، وابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٨٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٨٣.

٢ ـ إن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، لم يأت منكراً لا في أول الأمر ولا في آخره، ولا الصحابة بمنكر، وكل ما سمعت به من خبر باطل إياك أن تلتفت إليه[١].

٣ ـ إن أمير المؤمنين عثمان هو الذي اختار نهايته المأساوية طائعاً مختاراً، ليضرب للبشرية أروع أمثلة التضحية والفداء، مؤثراً الموت على إراقة دماء المسلمين، وإن كانوا بغاة معتدين.

٤ ـ إن منظمي الفتنة والذين لم يرحمهم التاريخ فعراهم الواحد تلو الآخر، هم من السبئيين الذين كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين، فيظهرون الإسلام، ويضمرون له العداء من الداخل، كما بيّن التاريخ نهاية أولئك القتلة، الذين لاقوا المصير نفسه بما كسبت أيديهم من الإثم والعدوان.

٥ ـ اختار عثمان رضي الله عنه نهايته تلك لموعدة وعده إياها رسول الله ﷺ، وعهد قطعه عليه، ومن هنا كان لابدّ من تناول هذه الفترة من تاريخ المسلمين ببعض التفصيل، حتى يقف القارئ الكريم، على الحقيقة بيضاء لا شية فيها، ليظهر له زيف الادّعاءات التي افتراها أهل الهوى والفتنة على عثمان رضي الله عنه.

---

(١) أبو بكر بن العربي: العواصم من القواصم، ص ٦٠.